

العلم

في شعر الزهاوي

١

قد يظن كثير من الناس أن النزعة العلمية التي تراءى لنا في شعر الزهاوي وغيره من المعاصرين نزعة جديدة في شعرنا العربي ، والحقيقة أنها قديمة فيه ، فكلنا نعرف أن شعرنا في العصر الجاهلي كان ديوان العرب وحافظ معارفهم ، بحيث كان ، ولا يزال ، خير مصدر لمعرفة الحياة الجاهلية وحياة القوم وعاداتهم وطعامهم وثيابهم ، فكل ما يتصل بهم مبثوث فيه . ولكن شاعراً منهم حينئذ لم يعتمد إلى صنع قصيدة تعلم الناس من حوله وتثقفهم ، فقد كان شعرهم لا يزال في دوره العاطفي الخالص ، وإنما نحن الذين نستطيع أن نستخلص منه ما نشاء من معيشة القوم ، حسب قدرتنا على الفهم والاستنباط .

فلما خرج العرب من جزيرتهم وتحضروا ، وظهرت حاجتهم للتثقف والدرس ، واختلفوا بين خوارج وشيعة وأمويين ومرجئة وقدرية أخذ الشعر يحمل روايب من آراء القوم ومذاهبهم السياسية والدينية . ولم يلبث معلمو اللغة أن طلبوا الشعر الغريب ، وإذا رؤبة يصنع لهم أراجيز يضمنها شوارد اللغة وشواذها وأوابدها اللفظية ، واتخذ الرجز وسيلة إلى استظهار هذه العقد اللغوية . وبذلك أصبحت الأرجوزة عنده ممتناً علمياً ، أو قل لأنها أولُ متن علمي في لغتنا العربية ، وهو متن يصاغ كله من وزن الرجز .

ونتقدم إلى العصر العباسي فيرقى العقل العربي ويأخذ في التعبير عن العلم تارة بالشعر وتارة بالنثر ، فبينما نجد مثلاً رسائل تبحث في الفرق والنحل

الإسلامية نجد بعض الرجاز يصوغ لنا هذه النحل والفرق رجزاً وشعراً . ولما ذهب بشار الشاعر المشهور إلى تفضيل النار على الطين تصدى له صَفْوَان الأَسَدِي بفضل الطين ويتحدث عن الأرض وعناصرها وما فيها من أسرار وعجائب ومعادن مختلفة ، كل ذلك يعرضه في روج علمية .

ونظّل طوال القرن الثاني نرى صوراً من هذا الاتجاه ، فبشر بن المعتز ينظم في الحيوان قصيدتين طويلتين ، وينظم إبان بن عبد الحميد كتاب « كليله ودمنة » كما ينظم قصيدة طويلة سماها « ذات اللخل » يذكر فيها بدء الخلق ونظام الكون ، ويأتي بعده إبراهيم الفزاري فينظم قصيدة طويلة في الفلك والنجوم بلغت آلافاً من الأبيات .

وبذلك يصبح لنا لون قائم واضح من الشعر يخالف ما ألفه العرب في جاهليتهم وما ألفته كثرتهم في إسلامهم ، وهو لون لا يراد به إلى التعبير عن الوجدان والعواطف الشخصية، وإنما يراد به إلى المعرفة والثقافة وأن تُصمّم مسائل علمية خاصة لا بين دفتي كتاب ، ولكن في قصيدة طويلة من القصائد . ولم يكن العرب بدعاً في الأمم حين استحدثوا هذا النوع من الشعر المعروف عند الغربيين باسم الشعر التعليمي ، فن قبلهم عرفه اليونان في قصيدة هزبود: « الأعمال والأيام » . وهي تتحدث عن العمل والزراعة والفلاحين متضمنة نصائح تنفعهم في حياتهم .

ويتسع هذا الفن من فنون الشعر عند العرب ، فتراهم ينظمون فيه كل ألوان المعرفة عندهم ، وكادوا لا يتركون علماً من العلوم دون أن يحيلوه إلى الشعر ، ودون أن يودعوا مصطلحاته أرجوزة طويلة قد تبلغ ألف بيت ، وقد تنقص أو تزيد ، وألفية ابن مالك في النحو معروفة .

وقد أكثروا من النظم في الكيمياء والحساب وأصول الفقه والفقه نفسه والقراءات ومصطلح الحديث وعلوم البلاغة ، وهم يسمون قصائد البلاغة بالبيدييات ، وكم بيديية ألفت وشرحت شروحاً مختصرة أو مطولة ، وكم استنفدت الشروح المطولة من مجلدات . وحتى عروض الشعر وقوافيه

نظموا قواعدهما شعراً ، ويخيل إلى الإنسان أنه لم يعد عندهم ضرب من ضروب العلم والمعرفة إلا أحواله نظماً .

ومعنى ذلك أن الشعر العربي غنى في هذا اللون من الشعر التعليمي وأنه يكتظ بقصائد وأراجيز منه ، وقد تبلغ القصيدة أو الأرجوزة ألف بيت عدداً ، وقد تزيد إلى آلاف . فشعراؤنا تنهوا إليه منذ القدم ، وعبروا به في مجالات علمية وثقافية مختلفة ، ولكنهم لم يعدوه من الشعر العام ، إنما عدّوه متوناً للحفظ والتسميع .

٢

كان هذا اللون من الشعر التعليمي قائماً في شعرنا ، حتى طلع علينا العصر الحديث ، ورأى شعراؤه أن يسايروا نزعات العصر ، وأحست طائفة منهم أنه ينبغي أن تهتم في شعرها بالعلم وأن تدخل إليه حقائقه ، وكان الزهاوى أول من تحمسوا لهذا الصنيع . ولم يكن يعرف لغة أجنبية من لغات الغرب ، وإنما كان يعرف الفارسية والتركية ، وعن الأولى ترجم رباعيات الخيام شعراً ونثراً ، أما التركية فإنه عاش بين أبنائها إذ رحل مبكراً إلى الآستانة منذ القرن الماضي ، وقد وكلوا إليه هناك تعليم الفلسفة الإسلامية في بعض مدارسهم^(١) .

وبعثته الوظيفة على الاتصال بفكرنا في العصر الوسيط من فلسفة وغير فلسفة ، وكانت تركيا قد سبقت بلاد الشرق الأوسط إلى الاتصال بالغرب وعلوم الغرب ، فأكب على ما تُرجم من ذلك وخاصة في الطبيعة والفلك ، ولم نلبث أن وجدناه يؤلف كتابين هما « الكائنات » و « تعليل الجاذبية »

(١) انظر « الزهاوى الشاعر » لإسماعيل أدهم (طبع مطبعة التعاون بالإسكندرية) ص ٢٥ .

ويظهر أنه سُغف شغفاً شديداً بهذه المعارف وما يتصل بها من آراء جغرافية ، ولم يرَ أن يقتصر في نشرها على كتابيه السابقين إذ كان شاعراً ، فرأى أن يسلكها في عقود الشعر .

وعلى هذا النحو أصبح الشعر عنده لا ينبض بالشعور وإنما ينبض بالفكر الحديث ومعارفه العلمية ، فقد سلط عليه قوى العصر العقلية ، ودفعه لأن يتمثلها ويتغناها ، حتى يصور لمعاصريه القوى التي تحرك الطبيعة والدوافع التي تدعن لها الأفلاك في مجراها ومسراها . وبذلك ترك الطبيعة الإنسانية ودوافعها النفسية ، وإحساساتها العاطفية إلى الطبيعة الكونية وما ينبث فيها من عجائب وغرائب ، فلم يعد الإنسان ومشاعره ومشاكله النفسية الشيء الذي يهيمه ، وإنما أصبح الكون هو الذي يشغله بما فيه من أثير وجاذبية تشد وحداته في الأرض والسماء . واستمع إليه يقول في قصيدته « سياحة العقل » :

لا تقبل الأجرام عداءً كلا ولا الأبعاد حدًا
العقل يرجع خائباً عنها وإن لم يألُ جهداً
مسترشداً بعلومه فيها إذا ما ضلَّ يهْدَى
والعقل يعلم من سيا حته التي أولته مجداً
أن الحجرَ لم تكن إلا عوالمُ فقنَ عداءً
والسحبُ فيها أنجمٌ هنَّ الشمسُ بَعْدُنْ جداً
متحركات في السما ء تخال أن هنَّ قَصْدًا
متجاذبات لو تخلَّ فَ واحدٌ عنها لأودَى
وهناك أجرامٌ على كرَّ الدهور جمدنَ برداً
ستعيد يوماً ما حرا رتها القديمة أو أشدًا
إني لأحسب أن هذا الكونَ حىٌ سوف يرْدَى
وكذاك أحسب كلَّ نجم جوهرًا للكون فردًا

والأرض بنت الشمس تا زم أمها جرياً وتحدى
وتدور في أطرافها مشدودةً بالجذب شدّاً
فتظوف مثل فراشة لاقتُ بجنج الليل وقدَا
ويدور محورها توجه نحو نور الشمس تحداً
لولا دليل الجذب ما ملكت بهذا السعى رُشداً
ولأبعدت عن أمها فضت وما ألفت مرداً
بل تاه جامدُ جرمها أو صادفت في السير ضدّاً
ويلى لها إن صادمتُ جرماً من الأجرام صلداً
فهنالك يهلك أهلها وتكون للإنسان تحلداً

وواضح أن سياحة العقل في هذه القصيدة إنما هي سياحة في السماء ، وبين النجوم والأفلاك ، ثم رجوع إلى الأرض . وهو في كل ذلك لا يتحدث عن خبرته ولا عن مشاعره ، وإنما يتحدث عن بعض الحقائق العلمية التي اشتهرت بين علماء الفلك والطبيعة ، فهو يستوحى من هذه الحقائق شعره ، ويكاد الشعر يكون نظماً لها ، إذ لا يضيف إليها شيئاً من تخيلاته وأفكاره إلا قليلاً جداً ، وما يكاد يكون في حكم العدم .

ولعل هذا هو السبب في أن قارئه يشعر مباشرة بغايته العلمية ، إذ لا يغلفها بجو نفسي خاص ، ولا ينشر حولها ضباباً من الشعور أو الإحساس الدقيق . فالعلم أو المعرفة العلمية تظهر في مرآة شعره كما هي أو تكاد ، وقلما تتحول إلى صورة فكرية أو شعرية : فالشاعر مشغول عن نفسه وعن عالمه الإنساني بالعلم وما يقول في الأفلاك ، وما يجري في بعضها من حياة ثم ما يربطها من قوانين الجذب .

ليس الشعر عنده إذن لسان الجنس البشرى ، وإنما هو لسان العلم وخلاصة لقوانينه ونظراته في مبادئه وفي رقعة الأرض والماء التي يستنبط

منها مادته في العلوم المختلفة ، وخاصة في الطبيعة والكيمياء وما يقال عن الجاذبية والأثير والذرة ، أو الجواهر الفرد . وإنه ليستطرد في كثير من شعره إلى بيان ذلك وتفصيله على نحو ما نرى في قصيدته « الدفع عوض الجذب » .
إذ يقول :

تحوى السماء نجوماً ذات أنظمة
تخالها ثابتات ، وهي مسرعة
وكل شمس لها جرم بنسبته
وهوالذى يُوسع الأجسام قاطبة
وللأثير يدٌ في الكون قاهرة
الجرم يأخذ منه بعض حاجته
وعند ذلك يجرى في جواهره
رداً لما اختلَّ فيه من موازنة
والجواهر الفردُ في الأجسام ليس سوى
كهيراتٍ بها يقوى ويقتدر
وبالعص منه كما في الراديوم يُرى
هذا الذى أنا مبدية لكم نظرى
من الشمس كثارا ليس تنحصر
كأنها الخيل في بيداء تحتنصرُ
يجرى الأثير إليها فهى تستعر
دفعاً عليها به الأجسام تنهمرُ
تدحرجت بعضهاها هذه الأكرُ
وللذى زاد عن حاجاته يذُرُ
كالماء قدصادفته جارياً حفرُ
إن التوازن في القوات مُعتبر
كهيراتٍ بها يقوى ويقتدر
ينحلُّ من نفسه فيها ويتثر
وإنما كل إنسانٍ له نظرُ

وليس بصحيح ما يقوله من أن هذا نظره ، وإنما هو نظر علماء الكيمياء والطبيعة في عصره ، إذ كانوا يذهبون ، ولا يزالون ، إلى أن الأجسام تتكون من ذرات ، وتتكون الذرات من نواة وكهارب أو « إليكترونات » تلور حولها وتتطابق معها في الحجم والوزن ، بمعنى أن لكل ذرة حجماً ووزناً خاصاً ، وكذلك الشأن في كهاريها . ويربط الأثير بين كل ذلك ، فهو الذى يربط بين النواة والإليكترونات ، وهو نفسه الذى يربط بين الكواكب

والنجوم . ومن هذه المعلومات ونحوها يؤلف الزهاوى شعره مغرباً على العامية العلمية التي كانت منتشرة في عصره .

ومن تكرار القول أن نقول إن الزهاوى في ذلك يعبر عن الكون ، فالشعر عنده لا يستجلى النفس وإنما يستجلى الكون ، لا من حيث الجمال المراجع فيه وفي مشاهدته ، وإنما من حيث القوانين العلمية التي انتهى إليها العلماء في بحثه وفي درسه . وبذلك يستحيل الشعر عنده إلى نوع من العلم ، ومحاولة لضغط المعلومات في وزن من أوزان النظم ، وكأنه يتجرد من نفسه ليتحول إلى بسط هذه المعارف العلمية في نظمه مجملاً تارة ومفصلاً أخرى .

والزهاوى بما أحدث من ذلك كان يسعى إلى أن يُعَدَّ في الشعراء المجددين لعصره ، ولكن يظهر أنه حلق بعيداً عن آفاق الشعر ودولته ، فقد ذهب يرضى آفاق العلم والعلماء ، ويحلب من كتبهم ونظرياتهم ما يحلّى به طائر شعره ، وما لعله يلمع فوق أجنحته ، وخاصة في أعين السذج والجهلاء ممن لم ينالوا قسطاً كبيراً من المعرفة . وكانت مباحث الذرة والأثير من أهم ما جذب شاعريته وجعله يندفع في هذا الاتجاه . وجذبته أيضاً فكرة تحول المادة إلى طاقة وتحول الطاقة إلى مادة ، وهو يردد القول في ذلك وأن كلاً منهما مظهر من مظاهر الأثير . واسمعه يقول في قصيدته « القوة والمادة » :

ما في الجواهر ، والأجسام منجمها
إلا قوى هي تبنيها وتهدمها
وهذه . لستُ بالتحقيق أعلمها

لا جسم إلا ويفنى بعد أزمنة
فلا جواهره تبقى ولا الصورُ

فيها القوى وهي ما بالسلب يتصف
كهيرباتُ إلى الأضداد تنصرف
تلور من حولها وتنبأ ولا تقف

في حبة الرمل فوق الأرض ساكنة
بين القوى ما به الأطواد تنفطر

ليس القوي غير بعض الجسم قد لطفا
والجسم إلا قوي مجموعة كثفا
وليس شيء عن الناموس منحرفاً

إلى الأثير بفعلٍ منه مرجعهُ
فهو المؤثر في الأشياء والأثرُ

وما يقوله الزهاوي عن الأثير وما في الأجسام من قوى أو طاقات
وما في الجواهر أو الذرات من كهارب موجبة وسالبة ، كل ذلك صحيح ،
وما الشمس والقمر والنجوم وكل الأجرام إلا جواهر يربط الأثير بين داخلها
كما يربط بينها وبين غيرها . ولا أدري كيف قال : « لا جسم إلا ويفنى بعد
أزمته » فن القواعد المعروفة في الطبيعة أن المادة لا تنفى .

ولعل في ذلك ما يدل من بعض الوجوه على خطورة تحول الشعر إلى
العلم الطبيعي وحكاية قوانينه ، فهذه القوانين غير ثابتة ، وهي في تغير مستمر .
وإن ما يعرفه العالم في هذا العصر عصر الذرة من تاريخ العلوم الطبيعية
وقوانينها أكثر جداً مما كان يعرفه في عصر الزهاوي ، وإذا رجعنا إلى عصر
نيوتن هالنا ما بين عصرنا وعصره من بعد الشقة ، فإذا تحولنا إلى عصر الفيلسوف
اليوناني « أنكسياندر » وهو أبو العلوم الطبيعية وقوانينها وجدنا الهوة شاسعة ، حتى
لا تصح المقارنة .

ومن هنا كان يحسن بالشاعر أن لا يخرج عن الدوائر الطبيعية للشعر ،
ونقصد دوائر النفس ومشاعرها ، لأن هذا الجانب في الإنسان خالد وما نظمه
هوميرس قبل أنكسياندر وعصره لا يزال العالم مشغولاً به مشدوداً إليه ، أما ما
كتبه أنكسياندر فقد أصبح شيئاً تافهاً، ولا يُرجعُ إليه إلا لمعرفة نشأة العلم

الطبيعي حين كان لا يزال يجبو في المهد صبيّاً ، أما بعد ذلك فإنه لا يهم أحداً لأنه أصبح لا يرضى حاجتنا العقلية .

وهذا هو الذى يجعل موقف الشاعر دقيقاً حين يترك عالم الشعور والأحاسيس إلى عالم الفكر والعقل ، لأنه يترك الشيء الثابت فينا إلى الذهن وعالمه ، وهو كل يوم فى شأن . وليس ذلك فحسب ، فإنه يتناول مسائل وقوانين قابلة لأن تصبح باطلة وتحل محلها قوانين أخرى ، وحينئذ تزول كل قيمة لشعره ، لأن قوانينه التى بَشَّرَ بها انتهت ، ولم يعد لها موضوع قائم ، أو بعبارة أخرى أصبحت غير ذات موضوع .

٣

ولم يستمد الزهاوى فى شعره من قوانين الطبيعة والكيمياء والفلك فحسب ، فقد ذهب يستمد أيضاً من علم الحياة ، وشغف شغفاً شديداً بنظرية النشوء والارتقاء وأن الكائنات الحية تطورت من حيوانات دنيا إلى الإنسان متنقلة فى مراحل ، ومتدرجة من أسفل إلى أعلى ، من الحيوانات الفطرية التى تعيش فى الماء إلى ابن آدم الذى يعيش على سطح الأرض ، ويغوص فى البحار ، ويحلق فى السماء .

وكل من عاشوا فى الثلث الأول من هذا القرن يعرفون الضجة التى أحدثتها هذه النظرية بيننا وأن من كانوا يؤمنون بها ويذيعونها فينا كان يعدهم الجمهور مارقين خرجوا على معتقداتنا وما ورثناه من علم عن آباتنا . ولما كان أصحاب هذه النظرية يرون أن حلقة القرد أقرب الحلقات السابقة لحلقة الإنسان فى هذا التطور المتدرج شاع بين الناس لذلك أن القائلين بنظرية التطور يذهبون إلى أن أصل الإنسان قرد ، ومعروف أنهم يمدون نظريتهم إلى أعمق من ذلك . إلى طبقات سفلى فى الكائنات الحية .

وكان الزهاوى أحد من دخلوا في هذه المعركة ، إذ كانت تكتب فيها المقالات ويكثر الجدل والصراع ، غير أنه لم يتزل المعركة نائراً ، وإنما نزلها شاعراً ، فقد ردد كثيراً في شعره هذه النظرية ، وكان دائماً يلقيها إلقاء الواثق المعتقد لما الذى لا يطيل في الدفاع عنها ، لأنها أصبحت من البديهيات العلمية ، ولا يصح فيها الجدل ولا ينفع التجاج . ومن أطرف ما نظمه فيها قصيدته « سليل القرد » التى نشرها له « مجلة الرسالة » سنة ١٩٣٦ قبل وفاته بقليل ، وفيها يقول :

عاش في الغاب القردُ دهوراً طويلاً	قبل أن يلقى للرقى سبيلاً
وُلدَ القردُ قبل مليون عامٍ	بشراً فارتقى قليلاً قليلاً
أى شىء أَلَمَّ بالقرد حتى	هجر الغابَ نجلهُ والقبيلة
إنه لولا العقل كان ضعيفاً	وعليه الحياة عبئاً ثقيلاً
وعلى رجليه مشى بعد أن سا	رَ على أربعٍ زماناً طويلاً
تَخَذَ الصخرَ بعد نحتِ سلاحاً	يَتَنَّى الوحشَ ضارياً أن يغولا
إنه في لقائه للضواري	لم يكن خَوْراً ولا إجفياً
إن عقل الإنسان خير سلاح	ولقد تفضلُ العقولُ العقولا
يا له من تطورٍ حَوَّلَ القردَ	دَ لإنسانٍ يُحسِنُ التخيلة
ولقد فارق القبيلة إلا	أنه ظلَّ حَبْلُهُ موصولاً
ولدتُه عروسةُ الغاب من قرٍ	دٍ جميلٍ فكان قرداً جميلاً
عاش أبناؤه دهوراً وما إن	عرفوا تحريماً ولا تحليلاً
بعد فَجَّرَ الإنسان كان غدوً	وأرى أن للغدوً أصيلاً
دَوَّلُ فوق الأرض ذات احتشام	غير أنى في خشية أن تدولا
إننى أخشى للنشوء انقلاباً	فيعود الإنسان قرداً كسولاً
وإذا ما خلا من الناس وجهه الـ	أرض كان الخلو خطباً جليلاً

وإذا ما بالعكس عاشوا وجدوا
ولياتي باسم « السبرمان » نسل
يتقضى كنهه الطبيعة حتى
وترى فوق المنكين له رأ
وعلى رأسه الكبير ترى شع
وإذا ما أبصرت عند اللقاء العي
وإذا ما تكاثروا حكموا الأر
أخضعوا أصناف الأشعة حتى

فسيمحون الموت حتى يزولا
هو أرقى منهم وأهدى سبيلا
ليس يبق شيء له مجهولا
سأ كبيراً وساعداً مفتولا
رأ أثينا تخاله إكليلا
ن منه حسبها قنديلا
ض بعدلٍ جباهاً والسهولا
جعلوا منها للسماء رسولا

والقصيدة تتحدث عن نظرية التطور وأن النوع الإنساني نهاية لمراحل لحقت جنساً أو نوعاً من الكائنات الحية . والزهاوى يقف هنا عند تحول الإنسان من عالم القرد إلى عالم البشر ، ويتحدث عنه وهو لا يزال في الكهوف والغابات ، ويتدرج به في أطواره من حين مشى على رجليه بعد أن كان يمشى على أربع ، ومن حين اتخذ سلاحه من الصخر يتق به الحيوانات ، إلى أن أصبح إنساناً متمديناً يؤسس الدول والحكومات . ويعرض لعقله ومدنيته ثم ينتقل إلى ما ينتظره من دورة جديدة أرقى من الدورة التي هو فيها الآن ، دورة « السبرمان » التي تتحدث عنها بعض الأدباء الغربيين . وحاول أن يصوره في هذه الدورة ، وقال إنه سيكون أرقى وأهدى سبيلا ، وإنه لن يعجزه شيء في الأرض ، فسيطلع على أسرار الطبيعة ، وستلقى إليه بمفاتيح هذه الأسرار جميعاً ، وسيكون جسمه عاتياً ضخماً جميلاً ، وسينشر العدل في طبقات الناس ، وسيسيطر على الكون سيطرة تامة ، فيعرف كل محركاته ، وتخضع له كل قواه وشعاعاته .

وإذا كان الزهاوى لم يعرض في هذه القصيدة بالتفصيل للتدرجات والتطورات التي تنقل فيها النوع الإنساني قبل وصوله إلى مرحلة القرد ،

فقد عرض لذلك في قصائد أخرى ، وفي إحداها يقول :

كلُّ ظني أن الحياة على الأر ض بدتْ من تفاعل الكيمياء
وهيَ ليست في كل ذلك إلا مظهراً من مظاهر الكهرباء
ولد الكهرباءُ في الأرض أحياءً ء بدتْ قبل البرِّ في الدّماء
ثم إن الحيوان بعد دهورٍ صار إنسانا ماشيا باستواء
وقضتْ سنّةُ الوراثَةِ فيه أن تكون الأبناء كالآباء

وهو هنا يؤكد نظرية النشوء والارتقاء ، بل يذهب معها منحدرًا إلى أصولها الأولى في الكائنات الفطرية ، وإنه ليرد الحياة إلى الكهرباء ، فهي التي نفخت الوجود في الخلايا الأولى ، ومنها قبست الكائنات الحية كلُّها حياتها وبقائها .

٤

وهذه النزعة العلمية عند الزهاوي جعلت شعره يصطبغ بصبغة مادية ، إذ جعله العلم يعنى بالجسم والمادة ، وجعله إيمانه بالكهرباء يبتعد عن الروح وعالمها ، وكان قد تصادف أن المذهب المادي شاع في أوروبا أثناء القرن التاسع عشر لعلو سلطان العلم الطبيعي ، فتناول قبساً بل أقباساً من ذلك في شعره ، وذهب بينها في عمله ، وينثرها في قصائده من مثل قوله :

ما في قوَى الإنسان أو تركيبه شيءٌ إلى غير الطبيعة ينتمي

وقوله :

ما الكهرباءُ سوى الحياة إذا انتهتْ

حركاتها ذهبَ الحياةُ بَدَادِ

وقوله :

ما في الوجود سوى أثيرٍ واسعٍ فهو القَوَى والروح والأجسامُ
في الكون أجمع أرضهِ وسماؤه للكهرباءِ النقضُ والإبرامُ

وتكثر مثل هذه الإشارات المادية في شعره . غير أنه ينبغي أن نلاحظ أن هذه المادية لم تكن صادقة كل الصدق ، ففي أحوال كثيرة نراه يشير إلى عالم الروح مؤمناً به ، مدعناً لحقائقه ، بل إنه ليؤمن بالبعث والنشور ، وأن يوم القيامة آت لا ريب فيه . ومعنى ذلك أن هالة الروح تحيط بماديته ، وأن علمه لم يستطع أن ينفك عنها أو ينفصل ، فهو يجري في فلكها على نحو ما نرى في قوله :

وما المرء إلا لاروحه فهو وحده لبابٍ وأما الجسم فهو له قشرٌ

وقوله :

قدفارق الجسم يسمو بعد ما هبطا روحٌ به كان قبل الموت مرتبطا

وقوله :

هيات ليس لمن به تودى المنية من حياةٍ
إلا إذا أتت القيا مة وهى يوماً سوف تاتي

وفي هذا ومثله ما يدل على أن النزعة المادية عند الزهاوي لم تكن تصدر عن قلبه ، وإنما هي بدع جاءه من الخارج مع ما جاءه من العلم وقوانين الكهرباء والأثير . ولذلك كانت ، مهما تجمدت وأصبحت كالصخر الثابت في شعره ، لا تلبث أن تذوب ، يذيبها بخار الروح والإيمان بالميتافيزيقا وما وراء المنظور .

وكان هو نفسه يشعر بذلك ، وكان يتحدث فيه موجةً من الحيرة والقلق ،

بل من الظنون والشكوك ، فهو مضطرب لا يدري أين يولّي وجهه ويستريح ، هل يولّيه نحو العلم وما يُطوّى فيه من ماديته ، أو يولّيه نحو الدين وما يطوى فيه من روحانيته؟ إنه إن رفض العلم أحسّ بفراغ هائل في عقله ، وإن رفض الدين أحسّ بفراغ أشد هولا في قلبه ، وهو لذلك كورقة في مهب ريح ، لا تثبت ولا تستقر على حال :

حيرةٌ في الحياة قد صرفتني عن بلوغى من الحياة مراى
وقضت أنى أطيل وقوفاً في ممرّ الشكوك والأوهام

وما يزال يلح على هذه الفكرة ، فهو أسير الحيرة والشك ، وهو لا يستطيع أن يبرم أمره ويتجه في حياته وجهة واحدة ، إما إلى اليمين وإما إلى اليسار . ولعل خير قصيدة تصور هذا التذبذب في نفسه قصيدته « الشكُّ لا يهدى » التي نشرها في مجلة الرسالة قبيل وفاته ، وهو يستهلها بقوله :

رأيتُ الهدى في الشك والشكُّ لا يهدى
كأنى بالظلماء قد كنت أستهدى
فطوراً أقول الروحُ كالجسم هالكٌ
وطوراً أقول الهلكُ عنه على بُعدِ
فيا لك من شكٍّ يبرحُ بي ولا
يبارحني حتى أوسدَ في لحدى
وإني لا أدرى أرشدى كان في
ضلالى هذا أم ضلالى في رشدى
أ أفقد جسمى وحده عند ميتى
أم الروح مثل الجسم يشمله فقدى؟
أروحٌ وجسم أم هو الجسم وحده
يحرّكنى فيما يضلّل أو يهتدى؟
أعدبُ حوبائى بما أنا فاكِر
كأنى من أعداء حوبائى اللدِّ

وظل على هذا النحو معلقاً في الفضاء بأرجوحة الشك لا يقطع برأى ، فهل يرجح العلم والمادة ، أو يرجح الدين والروح ويؤمن بخلودها ؟ والحق أنه لم يستطع أن يرجح إحدى الكفتين ، وإن كان قد تحدث طويلاً عن العلم والعقل ، وما لقي في سبيلهما من عنت ، صبّه عليه خصومه صبّاً

وأظن أنه قد اتضح لنا الآن الزهاوى وما نظمه من شعر في هذا المجال العلمى ، وكيف أن العلم ألقى على نظمه ظلالاً من المادية ، أو قل من الشك والحيرة بين المادية والروحانية . وكنا نتمنى لو طال هذا الشك وتعمقه إلى آمام بعيدة في داخله ، بل كنا نتمنى أن يتحول العلم عنده إلى مشاعر وأحاسيس . أما أن يستمر على نحو ما استمر عنده ، حقائق وقوانين تقرر فإن شعره يبدو متعلقاً بأشياء غير ثابتة ، أشياء من طبيعتها التغير ، وأنها لا تبقى ولا تدوم ، فسرعان ما تنمحى وتزول ، أليس يتجدد العلم دائماً ؟ أو ليس يطلع علينا العقل كل يوم بجديد قد يلغى إلغاء حكماً أو نظرية ضخمة سابقة ؟

ومن هنا كان يحسن بالشاعر حين يتعلق بالعلم أن يمزجه بالحقائق النفسية الكلية ، لأنها حقائق دائمة ، ولا تتغير على شاكلة ما نرى في حقائق العلم ، من تغير وتحول دائم مستمر . والشاعر الممتاز هو الذى يستطيع أن يقوم بهذا الصنيع ، بل هو الذى يستطيع أن يحول العلم نهائياً من حقائقه الزائلة إلى حقائق الشعور المطلقة الثابتة .

وليس معنى ذلك أننا نرفض العلم في الشعر رفضاً باتاً ، وإنما معناه أننا نطلب من الشاعر العالم أن يحول لنا علمه إلى شعور ، ولنتصور اليوم شاعراً يعرض علينا في إحدى قصائده حقائق القنبلة الذرية ، وما وضعه العلم الحديث من نظريات حول الذرة ، وما يدور حولها من كهارب ودقائق موجبة التكهرب ، وأخرى سالبة التكهرب ، فإنه إن وقف عند تقرير ذلك نَسَباً عن أذواقنا ولم يؤثر في أنفسنا لا قليلاً ولا كثيراً ، لأن شعره لا يحمل لنا خبرة نتعلمها في الحياة ، ولا نجد فيه ما يسلينا ولا ما يعزينا عن هذا الدمار الذى سيحقيق بنا ، إنما نجد فيه آلة الحراب وقذائفه مسلطة على رؤوسنا كأنها الأحجار الصخرية المدمية القاتلة .

وهو لا يصبح شاعراً حقاً إلا إذا تحول بهذه القنبلة الذرية وقوانينها إلى نفسه ، فاستخرج من مناجمها مشاعر وأحاسيس تصور نكبة الإنسانية المنتظرة ، ولا بأس من أن يعرض لتاريخها القديم ولستقبلها المظلم وما ينتظرها من هذا البلاء وشره المستطير .

وإذن فالزهاوى لا يُلام لأنه أدخل العلم إلى الشعر ، وإنما يلام لأنه لم يمزج مزجاً له قيمة بين العالمين : عالم العقل وعالم الشعور ، فقد بقي العلم عنده كما هو ، ولم يصف إليه شيئاً من أحاسيسه ومشاعره إلا نادراً جداً ، ولذلك كنا نحس أثناء قراءتنا لشعره بغير قليل من النفور ، فنحن ندخل معه في صحراء موحشة ، ليس فيها حياة وليس فيها متاع لنفس ، ومن أين يأتي المتاع وهو لا يحزن ولا يفرح أثناء ما يلقى من معلوماته ؟ إنه عالم فحسب ، وهو لا يخلط عواطفه بعلمه ، لأنه يراها من وادٍ آخر غير واديه .

ومن هنا كنا لا نبعد إذا قلنا أنه حَمَلَ الشعر عبئاً ثقيلاً ممضاً عجز عن النهوض به عنده ، إذ لم يستطع أن يتمثل نظرياته العلمية تمثلاً شعورياً ، بل ظل يتمثلها تمثلاً عقلياً خالصاً ، وظل ينقلها إلينا وكأنه يعدها لنا عدا ، فنعد معه ، ولكن بدون شعور ، وبدون إحساس خاص .

وليس الشعر وما يطوى فيه من شعور هو ما نفقده فقط في هذا الجانب العلمي عند الزهاوى ، بل نحن نفقد عنده أيضاً لغة الشعر وموسيقاه الهنيئة . أما اللغة فقد جارت عليها لغة العلم ، إذ كان الشاعر مهتماً بنقل معانيه ، فنقل معها ألفاظها وما تدور فيه من أساليب . وأما الموسيقى فإنها ضلت منه أثناء توغله في شعاب العلم وغابته المتداخلة الملتفة .